البعد الخيميائي في شعرية رامبو
قصيدة "حروف صوتية" نموذجا

الأستاذ: عثمان لوصيف
قسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب والفنون
جامعة وهران 1- الجزائر

ملخـــــص:

نسعى من خلال هذه الدراسة إلى الكشف عن البعد الخيميائي في شعرية رامبو بوصفه واحدا من كبار الشعراء المشهورين عبر العالم. ولتحقيق الغاية المرجوة من ذلك قمنا بتقسيم الدراسة إلى جزئين؛ نظري وتطبيقي. عمدنا في الأول إلى شرح التجربة الخيميائية كنشاط إنساني ضارب الجذور في القدم، وبيّنا علاقتها بالفكر الصوفي في تراثنا العربي الإسلامي على الخصوص. ثم وقفنا على "كيمياء الكلمة" كما عرضها رامبو في منجزه المتميز "فصل في الجحيم" حين قال: "واخترعت ألوان الحروف الصوتية..إلخ". وفي الجزء الثاني من الدراسة قمنا بمقاربة قصيدته الشهيرة "حروف صوتية" على ضوء المناهج النقدية الحديثة كالسيمياء وعلم الدلالة ونظرية القراءة والتأويل. كما حاولنا بالموازاة مع ذلك أن نناقش فلسفة الحروف والألوان حتى نبين للمتلقي كيف استطاع الشاعر أن يستغل هذه الأيقونات الرمزية وما تزخر به من أسرار روحانية عميقة يوظفها في بناء قصيدته بمهارة فنية خارقة.

Abstract:

The essential aim of our study is to show the alchemic dimention in the poetic works of Arthur Rimbaud as one of the well known great poets in the world. In order to reach that we have divided our study in two parts; theorical and pratical. First , we have tried to explain the alchemic experience as a very ancient magic activity and its relation with the spiritual thought, especially mysticism in our Arabic culture.The Rimbaud has exposed "Alchemy of the verb" in his excellent work "A season in hell" in which he said "I have invented the colour of vowels etc…".Then, in the second part, we have attempted to approach his famous symbolic poem "vowels" in light of modern critical methods as semiotics, theory of reception and interpretation. Besides we have tried to clear the philosophy of letters and colours in order to show how Rimbaud could explore these deep mystical ideas with an extraordinary artistic ability.

الخيمياء:

الخيمياء نشاط سحري عريق، ضارب الجذور في القدم، منبتها الأصلي "بابل"1 القديمة ببلاد الرافدين، قبل أن تنتقل إلى الشام ومصر وبلاد الإغريق وقبل ظهور مذهب القبلانية (LaCabbale)2 اليهودية والفلسفة الهرمسية اليونانية، وكان رامبو على وعي بهذه الحقيقة التاريخية، وقد أشار إليها في "فصل في الجحيم":

آه، لأجل هؤلاء العمال الفاتنين.

أتباع ملك بابلي.3

والخيمياء تختلف اختلافا جذريا عن الكيمياء الحديثة كما نعرفها اليوم في مدارسنا وجامعاتنا ومخابرنا، فهذه الأخيرة تقوم على التجربة العلمية ولا تتعدى حدود العقل والمادة الخاضعة للبحث والاختبار. بينما الخيمياء تنتمي إلى العلوم السرية، وهي في جوهرها تجربة سحرية، تتفلّت من قواعد العلم والعقل معا. وهي حتى وإن كانت تتعامل أساسا مع المادة المتمثلة في بعض المعادن أو العناصر الطبيعية، فإنها تبقى ممارسة سحرية لا تكتسب قيمتها إلا من خلال رمزيتها وأبعادها الروحية.

فالخيمياء إذن تنطلق أصلا من عالم المادة، ولكنها تفضي في النهاية إلى عالم الروح. ظاهريا، فإن الخيميائي يعمل على إنتاج "الحجر الفلسفي" أي امتلاك القدرة على تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب. أما باطنيا، فإن الخيميائي يعمل على امتلاك "الإرادة" لتحقيق التحولات الروحية التي ترافق تحولات المعادن الخاضعة للتجربة أو تسبقها؛ فالخيميائي إذن يعمل بطريقة تشبه ما يجرى في الطبيعة من تحولات سرية. يقول JuluisEvola إن الخيمياء قبل كل شئ «علم تقليدي للطابع الكوني الأولي»4. وما يهمنا أكثر بهذا الصدد هو البعد الروحي في تجلياته الرمزية حين يجعل الخيميائي هدفه الأساس هو بلوغ الكمال، وتحقيق الامتلاء الروحي؛ هنا تحديدا مدار التجربة الخيميائية لدى رامبو. وحسب Eliphaslévi فإن الهدف الحقيقي للسحر أو الخيمياء «هو الوصول إلى "النقطة المركزية"، والذين يصلون إليها فإنهم يحققون المعجزات»5.

والخيمياء تنطلق من مبدأ أولي يتمثل في وحدة الجوهر الكوني؛ فكل ما في العالم يخضع لناموس واحد،تستوي في ذلك الأرض والسماء،والنار والماء،وليست المادة سوى تجلّ للروح.

وعلى الخيميائي في عملية تحويل المعادن، التي يصاحبها تحوله الروحي، أن يستدعي الطاقة الكونية كلها بحيث يقوم بعملية تركيز قوية لروح العالم في المادة التي يعكف عليها، وبذلك «يحدّد المسار الإلهي للخلق»6. هنا تتحرر الذات لتستعيد جوهرها الإلهي الذي صدرت عنه، وفي هذه النقطة بالذات تتقاطع التجربة الخيميائية، في بعدها الأكثر نبلا وصفاء، مع الصوفية العربية الإسلامية حتى صارت كلمة الخيمياء، أو الكيمياء كما جرت على الألسن بمعناها القديم طبعا الذي يفيد معنى الخيمياء، من الاصطلاحات الصوفية الشهيرة المتداولة بين أصحاب الطريقة، ونكتفي هنا بالإشارة إلى الاصطلاحات الثلاثة التالية:

1-كيمياء السعادة: تهذيب النفس باجتناب الرذائل وتزكيتها عنها واكتساب الفضائل وتحليتها بها7.

2- كيمياء العوام: استبدال المتاع الأخروي الباقي بالحطام الدنيوي الفاني8.

3-كيمياء الخواص: تخليص القلب عن الكون باستيثار المكوِّن9.

يبدأ الخيميائي رحلته بالبحث أولا عن "حجر الفلاسفة"، وهو المادة الأولى أو الجوهر السري الذي يختفي عادة في الطبيعة بطريقة تمويهية، حتى أن الباحث لا يكاد يعثر عليه إلا بعد طول شقاء لكونه يبدو في عيون الناس تافها لا قيمة له كما لو أنه تراب مبتذل، ويتمثل عادة هذا الجوهر السري في مادة "الرصاص" بلونه الداكن غير الجذاب، ولذلك لا يرغب فيه أحد، وهو ينتشر عادة في المغارات. هذا ظاهريا، أما باطنيا أو رمزيا فيبدو أن هذا الجوهر السري أي "الرصاص" هو الخيميائي نفسه، يقول مؤلف MorienusauRoiKalid: «هذا الشيء هو فعلا منك أنت ويجب أن تستخلصه منك، فأنت له المَنجم»10.

ثم يباشر الخيميائي عمله أمام بوتقته أو مصهره لاستخلاص "الزئبق" و"الكبريت" من مادة "الرصاص" مستعينا في ذلك بـ: "النار السرية" التي تعمل بمادة الكلس (أكسيد

الكلسيوم)، حسبما يرى 11Limogeondesaint-didier، بعد استدعائه روح العالم Spiritummundi وتركيزها في المادة كما سبق أن أشرنا. على المستوى الرمزي كما يرى GuerdonDavid فإن هذه "النار السرية" التي تعتمد في عملها أساسا على "الكلس"، «ترمز إلى الغرائز الحيوية للكائن نظرا لطبيعته المالحة أي الجسمية»12. هكذا إذن نحصل على مادة "الملح"، وبالاستمرار في عملية الإذابة والتخثير في المصهر يحصل الخيميائي على مادة جديدة؛ سماد عضوي مركب "Compost" هو الذي سيمرّ بتحولات مختلفة تصاحبها أو تسبقها تغيرات متدرّجة في الألوان، حتى ينتهي الخيميائي إلى الحصول على "الكبريت الأحمر" أي "الحجر الفلسفي" الذي يمتلك القدرات السحرية العجيبة على تحويل المعادن إلى ذهب كنتيجة أخيرة. ويمكن تلخيص هذه العملية كما يلي:

1-الحصول على المادة الأولى أي الرصاص.

2-فصل الزئبق والكبريت.

3-الحصول على الملح.

4-الحصول على الحجر الفلسفي.

5-الحصول على الذهب -إكسير الحياة الأبدية.

أشرنا إلى أن تحول المعادن في المصهر يسبقه أو يرافقه تغير في الألوان، ولابد من توضيح ذلك. هناك ثلاثة ألوان أساسية تتدرج في الظهور وفقا لسيرورة العمل في المصهر؛ وهي الأسود، فالأبيض، فالأحمر، تتوسطها ألوان أخرى خلال عملية التحولات المعدنية؛ وهي الرمادي الذي يشير إلى المرور من الأسود إلى الأبيض، والأصفر الذي يشير إلى المرور من الأبيض إلى الأحمر- رمز نجاح العملية، ومع ذلك فحتى عندما يظهر اللون الأحمر قد لا يتحقق الذهب أحيانا، كما يقول 13philalèthe، في هذه الحالة يمر اللون الأحمر إلى الأخضر بضعة أيام، ثم يتغير إلى الأزرق، وأخيرا، في حالة النجاح، يظهر الذهب، كما تقول 14EnidStarkie، على شكل حبيبات أو سائل AurumPotabile هو إكسير الحياة الخالدة. هذه الألوان التي تمر بها العملية هي لغة الخيميائيين، وهي في الواقع رموز

تختلف وتتعدد تأويلاتها لديهم، وسنرى كيف يستغل رامبو ذلك بمهارة فائقة. وبهذا نصل إلى "ألوان الحروف" عند رامبو.

ألوان الحروف:

إذا كان الشاعر هو "ساحر الحروف" كما وصفه مالارميه، فإن هذا الوصف أكثرما ينطبق على رامبو، يقول في "فصل في الجحيم": "اخترعت لون الحروف الصوتية! - A أسود، E أبيض ،I أحمر، O أزرق، U أخضر."15، مما لا شك فيه أن رامبو هنا يذكّرنا بقصيدته الشهيرة Voyelles التي بناها فنيا على ألوان الحروف الصوتية التي اخترعها كما يقول بناء لا نظير له كما سنرى، لكن علينا من البداية أن ندرك أن ألوان الحروف الصوتية عند رامبو يدخل في صميم مذهبه الشعري، إذ يرتبط بنظريته في "الرؤيا"، وبتجربته في الخيمياء على الأخص. وقبل تحليلنا لهذه القصيدة التي ركّز فيها فلسفته في ألوان الحروف، يجدر بنا القول إن لعبة الألوان هذه التي استمدها رامبو من التجربة الخيميائية كما سنرى، صارت من الملامح الهامة التي يمكن ملاحظتها في كثير من قصائده اللاحقة. غير أننا ونحن نقرأ قصيدته "ما يقال للشاعر عن الزهور" التي كتبها في تلك الفترة من اهتمامه بالسحر والخيمياء يصادفنا مقطع حاسم يتحدث فيه الشاعر عن "الألوان"، ولا شك أن هذا المقطع يشكل إرهاصا قويا لميلاد قصيدة Voyelles فيما بعد، يقول رامبو:

من قصائدك السوداء ـ أيها المشعوذ!

البيض، الخضر، الحمر الانكسارية

فلتنفلتْ زهور غريبة

وفراشات كهربائية16

أول ما يشدّ انتباهنا في السطر الأول هو ظهور الشاعر على المشهد الشعري كساحر "أيها المشعوذ!"، الإحالة على عالم السحر والخيمياء جسّدها الشاعر هنا ببراعة، عن طريق اختياره لكلمة "المشعوذ!" الغنية بالدلالات، إذ توحي بخفة الحركة، والتغيرات المفاجئة، والرقص، واصطناع الأزياء التنكّرية، والألوان البهلوانية، وما إلى ذلك مما يذكّرنا بمادة الزئبق لدى الخيميائيين، في طبيعته المعدنية الرجراجة غير الثابتة، وما ينتابه من تحولات في المصهر،

وما يصدر عنه من معادن أخرى متغيرة الألوان. لقد سبق أن ذكرنا في حديثنا عن الخيمياء، أن المادة الأولى التي يستخلص منها الخيميائي الزئبق والكبريت والملح حتى يصل إلى الحجر الفلسفي ثم الذهب - إكسير الحياة الأبدية، هي مادة سوداء تافهة في مظهرها - الرصاص المنتشر في المغارات، لكن هذه المادة السوداء التي تبدو محتقرة، هي الأصل الأول لكل المعادن وكل الألوان المتعلقة بمسار العملية الخيميائية، لذلك نجد الشاعر يضعها في البداية حين يعبر عنها بهذه الصيغة "من قصائدك السوداء،- أيها المشعوذ!"، فالقصائد السوداء، هي إحالة على المادة الخيميائية الأولى السوداء. هكذا إذن، بعد تأويل رمزية السطر الأول على الطريقة الخيميائية تُفَكّ شفرات المقطع الشعري كله، ويصبح ظهور الألوان المتنوعة، والزهور الغريبة، والفراشات الكهربائية أمرا متوقعا في التصور الخيميائي.

فإذا تذكرنا أن رامبو كثيرا ما ينطلق في عمله الإبداعي من تجربة شخصية عابرة إلى تجربة شعرية عميقة، ثم ينطلق من هذه التجربة الشعرية إلى آفاق وجودية وميتافيزيقية، استطعنا أن نقرأ رمزية الألوان المذكورة بعمق أكثر، فرامبو ذاته، وفي المقطع الأخير من القصيدة ذاتها، يمنحنا إشارة هامة جدا إلى أحد مصادر قراءاته الخيميائية على الخصوص، وهو ما يهمنا في هذا السياق، يقول في المقطع الأخير من هذه القصيدة التي أهداها إلى زعيم البرناسية Théodore de Banville:

ـ ومن أجل تأليف
قصائد مليئة بالسر
...
على المرء أن يقرأها من تريغييه
إلى باراماريبو، اشترِ من جديد
مجلدات من تأليف السيد فيغييه
مزدانة بالصور ـ عند السيد هاشيت!17

فيغييه (LouisFiguiet) هذا الذي يشير إليه رامبو له كتاب "عجائب العلم" Les science la de les veil mer، و قد ذكره معظم نقاد رامبو، على أساس أن رامبو كان

قارئا مهتما بالكشوفات العلمية في عصره، إلا أن David Guerdon يرجّح أن رامبو قصد كتاب "الخيمياء والخيميائيون"L'Alchimie et Les alchimistes18 لنفس المؤلف أي Figuiet، ونحن نرى أن رامبو استفاد من الكاتبين معا؛ بناء على تحرينا لنصوصه الشعرية خاصة. وعليه فلا غرو أن ينتهج رامبو في أسلوبه الرمزي نهج الخيميائيين في أسلوبهم السري والرمزي، لذلك يمكننا القول أيضا إن "القصائد السوداء"، بالإضافة إلى ما ذكرناه آنفا، تعكس تلك المرحلة المظلمة من حياة رامبو الفكرية والروحية، حين تمرد على كل شيء وغاص في الرذيلة من أجل الوصول إلى الرؤيا والإشراق، مرحلة الفوضى الروحية التي أشار إليها في "فصل في الجحيم" بقوله "وفي النهاية وجدت أن فوضى روحي أمر مقدس". فإذا تذكرنا أن الخيميائيين، كما سبق أن بيّنا يقولون بأنهم يجددون المسار الإلهي للخلق، أدركنا أن اللون الأسود يعكس أيضا مرحلة العماء الأول الذي كان يلف الكون بظلامه المطبق أي مرحلة ما قبل الخلق أو العدم، وأدركنا أيضا البعد الكوني "للقصائد السوداء". أما الزهور فهي كما يرىDompernityفي معجمهDictionnaire mytho-hermétique تجسّد في الخيمياء «الألوان المختلفة التي تظهر على المادة خلال عمليات إنتاج الحجر الفلسفي»19، كما أن كلمة -Fleur زهرة، كذلك، تعطي لدى الخيميائيين معنى الجوهر الصافي La pure substance الذي يحتويه المعدن، أي الروح في المادة20. أما «الفراشات، رمز البعث والصعود المنبثق عن المادة الأولية، فهي إذن تقود نحو سماوات ملائمة»21. ومن المهم هنا أن نشير إلى أن الفراشة عند الصوفية المسلمين ترمز إلى الروح، وهو ما نجده لدى رامبو في هذا المقطع المكثف بالرموز. وبهذا يكون رامبو قد مهّد لنا الطريق لنفهم أكثر ما يعنيه بألوان الحروف الصوتية في قصيدة Voyelles ونكون نحن قد تتبعنا جانبا مهما في نمو التجربة الشعرية لدى رامبو، مما يؤهلنا أكثر لفهم قصائده المستعصية.

حروف صوتية

VOYELLES

Aأسود، E أبيض، I أحمر، U أخضر، O أزرق: أيتها الحروف الصوتية،
سأكشف ذات يوم ولاداتك المستترة:

A مِشدّ أسود مخملي للذبابات الساطعة
التي تطن حول التعفنات القاسية،

خلجان ظل ؛ E، بياضات أبخرة وخيام،
رماح متثلجات فخورة، ملوك بيض، ارتعاشات أزهار مظلّية؛
I، أرجوانات، دم مبصوق، ضحك الشفاه الجميلة،
في الغضب أو السكرات النادمة،

U، دورات، ارتجاجات إلهية للبحار الخضراء،
سلام المراعي المزروعة حيوانات، سلام الغضون
التي تطبعها الخيمياء على الجباه الجادة،

O، بوق علوي مفعم بدندنات غريبة،
سكونات مجتازة للعوالم و الملائكة:
ـOالأوميغا، شعاع عينيها البنفسجي!22

هذه القصيدة تعد إحدى روائع رامبو الشعرية، وقد نالت شهرة واسعة النطاق في الأوساط الأدبية، خصوصا لدى الرمزيين. سنقف عندها بشيء من التحليل قصد الكشف عما تزخر به من طاقة إبداعية هائلة تعكس بعض الملامح الهامة جدا في التجربة الشعرية لدى رامبو، وما الإشارة إليها في"فصل في الجحيم" في سياق الحديث عن "كيمياء الكلمة" إلا دليل من الشاعر نفسه عن مكانتها في تجربته الشعرية، بأبعادها الروحية وتجلياتها الفنية.

بنية القصيدة:

اختار الشاعر لبناء قصيدته الحروف الصوتية الخمسة الأساسية في اللغة الفرنسية (A.E.I.U.O) وأسبغ على كل حرف منها لونا مميزا وفق استراتيجية فنية مصممة بإتقان فائق، ثم أتبع كل حرف بسلسلة من الصور التي تدور معانيها حول التيمة المحورية لرمزية كل حرف، بحيث تزيدها ثراء وديناميكية وتضفي عليها تنويعات دلالية وإيحائية مختلفة. وبهذا

يقدم لنا الشاعر تشكيلا هندسيا متناغما يتألف نسيجه من خمس أيقونات متكاملة ومتفاعلة فيما بينها، تنتظمها جميعا لوحة كلية واحدة هي القصيدة ذاتها في إطارها الفني الشامل الذي يحتضن الكون بأسره وينفتح على آفاق روحية لامتناهية، في إشراقة من الفيض السخي لا يمكن توصيفها إلا بالرؤيا الصوفية التي تستبطن، فيما يشبه الحلم، ذلك السر الذي يبحث عنه رامبو، سر المجهول!

لقد سبق أن تحدثنا عن التجربة الخيميائية، وأوضحنا الطريقة التي كان يعمل بها الخيميائيون القدامى، وكيف كان يتم تحويل المعادن في المصهر عبر مجرى العملية كلها من البداية إلى النهاية، وما ينجم عن ذلك من تدرّج في ظهور الألوان المختلفة، وما يشير إليه كل لون منها، كما قدمنا أيضا مقطعا شعريا لرامبو كشفنا من خلاله كيف استطاع الشاعر أن يستغل التجربة الخيميائية ليوظفها ببراعة في عملية الإبداع الشعري، خصوصا فيما يتعلق بلعبة الألوان ورمزيتها كما مر بنا. هكذا، واعتمادا على هذه المرجعية، ما إن نقرأ السطر الأول من قصيدة Voyelles حتى يتكشف لنا بوضوح الأسلوب الخيميائي الذي ينتهجه الشاعر، فأول ما يشد انتباهنا هو ترتيبه للألوان وفقا للترتيب الخيميائي نفسه، وبدقة متناهية: الأسود، فالأبيض، فالأحمر، فالأخضر، وأخيرا الأزرق؛ وهنا يكمن المفتاح الأول للولوج في عالم النص. أما المفتاح الثاني فيكمن في اختيار الشاعر للحروف الصوتية Voyelles في اللغة الفرنسية، دون الحروف الساكنة Consonnes، لأن عددها خمسة حروف، وهو ما يجعلها تتوافق مع مراحل العمل الخيميائي التي لخصناها في خمس مراحل كما سبق، كما أنها تتوافق أيضا مع العناصر الخمسة لدى الخيميائيين وهي: الماء، النار، الهواء، التراب، ثم الأثير.

هذا، بالإضافة إلى عوامل فنية أخرى منها أن هذه الحروف، الصوتية أصلا، تمكّن الشاعر من المزج بين الصوت واللون وما يتولد عن ذلك من صور أخرى، ومنها أيضا أن هذه الحروف الخمسة تشتمل على الحرفين الأول والأخير من الأبجدية اليونانية. أما المفتاح الثالث فيكمن في تقديم حرف U وتأخير حرف O خلافا للترتيب الأبجدي الفرنسي حيث نجد O قبل U، وهو إجراء حاسم في رهان القصيدة؛ لأنه يكشف لنا مسبقا عن المعالم الأولى

لخارطة الشاعر واستراتيجيته، ويسلّط كذلك الضوء على الفضاء الذي سيتحرك فيه مسلسل النص بحلقاته الخمس. وعلى هذا الأساس يمكننا الخروج بالنتيجة التالية؛ وهي أن الشاعر يفتتح قصيدته بحرف A الذي يقابل أول حرف في الأبجدية اليونانية Alpha ويختتمها بحرف O الذي يقابل آخر حرف في الأبجدية اليونانية Oméga والذي نجد الشاعر يشير إليه صراحة في البيت الأخير من القصيدة.

سر الحروف:

لقد كان دائما للحروف سرها المعجز وتأثيرها العجيب في النفس والطبيعة، وكان رامبو بحدسه الشعري الأصيل يعي هذه الحقيقة الأزلية للحرف -الجذر السديمي الأول للكلمة الخالقة التي وُهبت للإنسان دون غيره من المخلوقات. والواقع أن للحروف سرا إلهيا هو فوق كل تفسير، من هنا كانت لها قدسيتها وجبروتها، ويكفي أن نعود إلى الفكر الصوفي العربي في الإسلام لنكتشف المقام الأسمى الذي تبوّأه الحرف.يقول النفّري في"موقف أدب الحروف":

"وأوقفني في أدب الحروف وقال لي:

جاءتك الحروف، فقالت لك: قل للإنس. وجاءتك الحروف، فقالت لك: قل للجن.

وجاءتك الحروف، فقالت لك: قل للملائكة. وجاءتك الحروف، فقالت لك: قل لله.

قل للحروف: إنما أنتِ لله، وإنما أنتِ لسان من ألسنة الله..."23.

غير أن هذا السر الكامن في الحروف قد بلغ ذروته القصوى في القرآن الكريم. ومن الطريف جدا بهذا الصدد أن الحروف الافتتاحية الواردة في بدايات كثير من السور القرآنية، بسرّها السرمد، لم تتجاوز الخمسة حروف؛ فقد وردت بحرف واحد: ن، وبحرفين: يس، وبثلاثة حروف: طسم، وبأربعة حروف: المص، وبخمسة حروف: كهيعص، على سبيل المثال لا الحصر، وهو العدد نفسه الذي بنى عليه رامبو قصيدته. ولا بد أن نشير إلى أن الخيميائيين كانوا يعتقدون بميتافيزيقا الأعداد، وقد تحدث عنها فيثاغورس والغنوصيون من بعده، وكذا ابن عربي، ثم يونغ عالم النفس الكبير، ورامبو! ألم يقل في "فصل في الجحيم": "إنها رؤيا الأعداد"، وإذن فاختياره لخمسة حروف، إضافة إلى ما ذكرناه سابقا، ينطوي على سر

ميتافيزيقي عميق ورؤيا كونية بعيدة المدى. ينبغي أن لا ننسى أبدا أننا نتعامل مع ساحر عنيد «سأكشف كل الأسرار: دينية أو طبيعية، الموت، الميلاد، المستقبل، الماضي، نشأة الكون، العدم. إنني أستاذ في الشعوذة واستحضار الأشباح»24.

... أيتها الحروف الصوتية،

سأكشف يوما ولاداتك المستترة:

هكذا يتضح لنا من البداية أن رامبو يوغل في رؤاه العميقة، متجاوزا عالم الوقائع الظاهرية التي يقف عندها عقلنا الباهت، إلى تلك العوالم الباطنية ليقف على معجزة الخلق الأزلية؛ يصغي إلى ما يختمر في الأعماق، يمزق الأغشية ويهتك الظلمات، ليشهد تلك الولادات المستترة في رحم الكون. الوجود بأسره لغز محيّر، والحياة لا تتجدد إلا مختومة بألف سرّ وسر. أكيد، ثمة نار خفية تلهب النبض في الأنساغ فتتحرك مأخوذة بالنداءات العاشقة، مستجيبة لصيحة الأمر، تنفلق البذور في مشائم الأرض، تبدأ الجذور هجرتها نحو العناصر الأولى والمياه البدئية، المهج تتوهج وجدا في الخفاء، الأجراس تتألق من حنين، كل الرموز الكونية تنفلت من الأسر، أسر العدم، وتتراكض الحروف مغرّدة ومبشّرة بالولادات الجديدة للحياة. هكذا يفتضّ ساحر الحروف طلسم الحروف، وهي تتناسل في ملكوت الأسرار، حروف الوجد المبارَك، حروف المحبة، عصافير القلب، فراشات الروح.

الأيقونة الأولى -A: أول حرف أبجدي، يضفي عليه رامبو اللون الأسود، ليقابل المادة الأولى في الخيمياء، التي هي سوداء، وليعكس كذلك الحالة الأولى التي صدر عنها الخلق، حالة العماء الأول، قبل أن تتشكل الأشكال وتتشيأ الأشياء، وهي حالة من السواد والظلام والسكون والعدم، إن الحياة في الطبيعة تتشكل في ظلمات الأرحام، وليس هذا الكون سوى رحم كبيرة، والرحم تذكّرنا مباشرة بالأنثى التي تنبثق منها الولادات الكبرى بعد أن تتلقى لقاحات الذكورة. الزئبق في الخيمياء يرمز للأنثى، أما الكبريت فيرمز للذكر، وعندما توضع المادة الأولى في المصهر ويظهر اللون الأسود فهو يعطي للخيميائي علامة على تحلل المادة وتعفنها. هذه العفونة السوداء ضرورية لميلاد لون جديد، ومعدن جديد، وتحوّل روحي للخيميائي ذاته

جديد أيضا.

قدرة خارقة على تركيز الأفكار لدى رامبو وعبقرية فذة في اختيار الكلمات وتشكيل الصور؛ ''مِشدّ أسود مخملي''، هذه الصورة تنطوي على تلميح فني بارع للأنثى في كلمة مِشدّ Corset التي تجعلنا نستحضر في أذهاننا صورة الأنثى مع التركيز على مكان الخصوبة والولادة منها، فالمِشدّ ثوب نسوي تشد به المرأة خصرها وردفيها، أي ما يحيط بالرحم الأنثوية، هذا المشد الأسود إذن يحيلنا مباشرة على ظلمة الرحم التي تتخلق فيها جرثومة الحياة، ويأبى رامبو إلا أن يضيف لهذا المشد الأسود صفة ''مخملي'' ليضفي على الصورة الشعرية حالة من الشبق والإيروسية الكونية. هذه الإشارة الرامزة للأنثى إذن تمتد إلى بداية الخليقة، الرؤيا لدى الشاعر تتسع لتختزل تاريخ الكون بأسره. تعفنات المادة لدى الخميميائيين حالة إيجابية ولابد منها لعملية الخلق والتجدد، وهذا يذكرنا بميلاد البكتيريا من تخمرات المادة وتعفناتها كما يقول علماء البيولوجيا.

من الموت تولد الحياة! من أجل ذلك نجد رامبو، وهو يعتمد على توالد الصور، يضيف صورة ''الذبابات الساطعة التي تطن حول التعفنات القاسية''ولا يجعلها منفصلة عن الصورة الأولى بل مكمّلة لها، ''والذبابات'' تحيل مباشرة إلى ''التعفنات''، إذ غالبا ما نجد الذباب في الطبيعة ينجذب إلى الأشياء المتعفنة، غير أن رامبو يصف الذبابات بـ ''الساطعة'' ليمنحها ذلك الإرهاص العجيب بالنور الذي سيولد بعد قليل من ظلمات العماء كما سنرى، كذلك يصف التعفنات بـ ''القاسية'' ليبشر بحتمى المخاضات وآلام الولادة. تكاد الديانات كلها والأساطير القديمة كلها أن تجمع على أن الإنسان جُبل من طين، إلا أن القرآن الكريم بالإضافة إلى ذلك، ينفرد بهذه الصورة التي تجعل الفكرة قريبة جدا مما عبر عنه رامبو، وذلك في قوله تعالى «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الاِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ»25، الحمأ المسنون، يجمع بين السواد والعفونة.

وأخيرا يضيف رامبو هذه الصورة التي تلتحم بقوة مع الصور السابقة ''خلجان ظل''؛ هنا مَكمن الإعجاز الشعري في القصيدة، الشاعر يشير، بما لا يقبل الشك، إلى المياه البدئية

الأولى التي كانت تغمر العالم، أي الأرض، وبرؤيا نافذة يربط بين الماء والظلام الذي عبر عنه بالظل؛ من هذه الخلجان المظلمة سيولد الضياء، وقد فضّل رامبو في هذه الصورة الأخيرة أن يختار كلمة "ظل" ليوحي لنا بأن النور قريب.

الأيقونة الثانية –E: يبقى رامبو وفيا في انتهاجه المسار الخيميائي، فما إن ينتهي من حديثه عن اللون الأسود بثراء رمزيته وأبعاده الهائلة حتى ينتقل، على الطريقة الخيميائية ذاتها، إلى اللون الأبيض المرموز له بحرف E. ومن جديد يبدو رامبو كخيميائي أمام المصهر، يراقب ويدفع بالمادة إلى التحولات المنتظرة. وهكذا بعد التلاشي المتدرج للسواد يأخذ اللون الأبيض في التشكل من خلال الأبخرة المتصاعدة من المادة المصهورة، وهو دليل يبعث على التفاؤل بنجاح العمل الخيميائي. فإذا أضفنا إلى ذلك ما كنا أشرنا إليه من أن الخيميائي يجدد مسار الخلق الإلهي، ويعمل وفقا لقوانين الطبيعة في سريتها الأشد غموضا وإبهاما، أمكننا أن نفهم بيسر هذه الصورة الحية التي يفتتح بها رامبو كلامه بهذا الشأن "بياضات أبخرة وخيام"، تشير"البياضات" إلى النور الأول الذي فاض على العالم إيذانا بمعجزة الخلق، وتشير "الأبخرة" إلى المياه البدئية التي صدرت عنها الحياة، ثم ينتقل بنا الشاعر من خلال كلمة "خيام" إلى الحياة البشرية، وتستمر الصور في التوالد توكيدا لهذه المرحلة النورانية الناصعة البياض "رماح متثلجات فخورة"، وهي صورة توحي بانفجار الحياة وعنفوان مجدها المهيب، وتليها صورة "ملوك بيض" لتزيدها جلالة وبهاء، فعمارة الأرض ستوكل للإنسان ليسبغ عليها من بطولاته وممالكه وحضاراته. وفي الأخير تأتي صورة "ارتعاشات زهور مظلّية"، وهي صورة في غاية الكثافة، توحي بأن ألوانا أخرى وولادات أخرى تتهيأ للظهور من هذه الاختلاجات الحية لبياضات النور المندفع في مسارب الضباب بسرّيته الحميمة.

وقد لاحظ David Guerdon أن رامبو هنا يتبع حركة "سفر التكوين La Genèse"، ويورد هذه العبارة التوراتية «وروح الرب يرف فوق وجه الماء»26. وهي ملاحظة في غاية الأهمية، غير أن ما أدهشنا هنا هو أن رامبو بأسلوبه هذا يقترب من ملحمة الخلق البابلية الشهيرة "الإينوماإيليش" أكثر من غيرها، والتي يرجع تاريخها كما حدده

دارسوها من الغربيين إلى «حوالي 1800 قبل الميلاد أي قبل ولادة موسى بأربعة أو خمسة قرون»27، و«قبل ألف وخمسمائة سنة تقريبا من كتابة إلياذة هوميروس، وتدوين أسفار التوراة العبرانية»28. ويمكن أن نستخلص منها ما يلي: مرحلة العماء الأول التي هي سكون وظلام مطبق يخيم على المياه الأولى مُمَثَّلَة في ثلاثة آلهة وهي "تعامة" إلهة الماء المالح، و"إبسو" إله الماء العذب، و"ممو" الضباب المنتشر فوق تلك المياه والناشئ عنها29، ثم تأتي مرحلة الخلق بدءا بالنور الذي يشعّ ويتولّد من الآلهة ثم خلق السماء والأرض والأجرام والإنسان30.

لعل الخيمياء التي منبتها "بابل" هي القاسم المشترك بين قصيدة رامبو و"الإينوماإيليش"؛ فالأنوثة والذكورة والتزاوج وعنصر الملح والبخار (الضباب) كلها اصطلاحات خيميائية، خصوصا أن الخيميائيين يعتقدون بتجدد الخلق الكوني في تجربتهم كما مر بنا؛ جاء في أحد النصوص الدينية القديمة «هذا ما قام به الآلهة، وهذا ما سيقوم به الإنسان»31. ولا ينبغي أن يغيب عن بالنا أن أحبار اليهود لم يقوموا بصياغة موحدة لأسفار التوراة إلا بعد العودة من الأسر البابلي لليهود عام 538 ق.م32. وقد يدهش الباحث كثيرا للوصف الدقيق للتكوين والطوفان، الذي يسبق التوراة بقرون عدة، كما ورد في الملحمتين البابليتين القديمتين "جلجامش" و"الإينوماإيليش". ولا يفوتنا كذلك أن معظم الأساطير اليونانية ترجع إلى أصول بابلية وسورية «كأسطورة قدموس الإله الذي جاء من فينيقيا وعلّم اليونان الكتابة، وأسطورة اختطاف الإلهة السورية يوروبا التي أعطت اسمها للقارة الأوروبية الجديدة»33. وكذا بارات إلهة بيروت، التي «حملها الفينيقيون معهم عبر مضيق جبل طارق فأعطت اسمها للجزيرة البريطانية»34.

الأيقونة الثالثة –I: بعد الأسود والأبيض يأتي الأحمر ثالث الألوان الأساسية في العمل الخيميائي، وهو علامة إيجابية جدا لدى الخيميائيين، إذ يبشّر بنجاح العمل والحصول الوشيك على الكبريت الأحمر أو الحجر الفلسفي الذي يمتلك قدرات عجيبة. وهكذا بعد حرف I مباشرة تأتي كلمة "أرجوانات" لتذكرنا بالكبريت الأحمر، وقد أوردها الشاعر بصيغة الجمع

ليمنحها تعددا دلاليا خصيبا وزخما رمزيا متنوعا قد يصل حد التضاد أحيانا؛ فقد يوحي الأحمر بالحروب الدموية الفتّاكة والحمم البركانية المتشظّية أو ألسنة الجحيم الضارية، وقد توحي بالورود الحمراء والقلوب العاشقة والأيدي المحنّاة في الأفراح، اللون الأحمر باختصار هو لون الجحيم والنعيم معا.

من هنا لا غرابة في أن تتوالى هذه الصور التي تبدو مشوشة، على الأقل ظاهريا، "دم مبصوق" ثم "ضحك الشفاه الجميلة"، ويزيدها الشاعر تصعيدا حين يضيف "في الغضب أو السكرات النادمة". في رأينا، إن مثل هذه الصور يعكس التحولات الروحية الرهيبة للشاعر وقد بلغت ذروتها، بالتوازي مع التحولات المعدنية المنصهرة، رمزيا، في نار البوتقة الخيميائية. ومن جهة أخرى فهي تعكس كذلك، وبقوة، ما عناه رامبو في "رسالة الرائي" حين قال: "-لكن الأمر يتعلق بجعل الروح مهولة: على غرار أكلة لحوم البشر"، وما عبر عنه كذلك بقوله: "كل أشكال الحب، الألم، الجنون؛ يبحث بنفسه، عن كل السموم ويستنفدها بداخله لكي لا يحتفظ منها إلاّ بالجوهر. عذاب لا يوصف حيث يحتاج إلى كل الإيمان، كل القوة الفائقة للطبيعة البشرية، وحيث يصبح بين الجميع المريض الكبير، المجرم الكبير، الملعون الكبير، -والعارف الأعظم!". لقد بلغت الروح أوج معاناتها في مصهر التحولات، ولم يبق لنا سوى أن تنتظر ما يسفر عنه هذا التحول الروحي المريع!

الأيقونة الرابعة –U: بعد تلك الجنونات الحمراء، في دوامة التحولات الروحية، بعد صرصر الغضب وزفير النيران الراعفة، بعد السم المدمر لكل الحواس، بعد ليل الفجور الأحمر، يستفيق الشاعر على إيقاع الحياة الجديدة، وقد سكت عنه الغضب ولم يعد يبصق دما، لقد تطهّرت روحه مما علق بها من أدران النجاسات، وها إنّ غيمة إلهية خضراء تهفهف الآن على جراحاته وتهدهد آلامه فيغدو العالم كله سلاما أخضر. يفتتح الشاعر كلامه عن حرف U بلونه الأخضر في هذه المرحلة الرابعة بكلمة "دورات" التي تذكّرنا بدورات الفصول الأربعة ودورات العمر ودورات الخيمياء ودورات التحول الروحي الكبير! لقد أخذ البعد الروحي للخيمياء يتشكل بقوة في نسيج القصيدة، ولا أدلّ على ذلك من هذه الصورة الرائعة حقا

''ارتجاجات إلهية للبحار الخضراء''، ثم هذه الصورة ''سلام المراعي المزروعة حيوانات''، وأخيرا هذه الصورة ''سلام الغضون التي تطبعها الخيمياء على الجباه الجادة''.

بهذا التوالد العجيب للصور، يجسّد رامبو حالات الروح وتحولاتها السرية، لينتهي أخيرا إلى الشعور العميق بالسكينة والسلام الإلهي. هكذا يتغلغل السحر الخيميائي ببعده الأشد روحانية إلى صور القصيدة، وهكذا ينتصر الشاعر فنيا وروحيا، لقد قارب الكمال والحكمة السامية، وصار بوسعه أن يتبوأ مقاما صوفيا جديرا به.

الأيقونة الخامسة – O: بعد أخضر السلام والاستغراق الروحي في نشوة الحلم الكبير، تنفتح آفاق لانهائية من شفافيات زرقاء أثيرية، يلتحم اللون الأزرق بالأثير-العنصر الخامس لدى الخيميائيين بعد العناصر الأربعة: النار والماء والهواء والتراب، وهو أصفاها وأشرفها وأسماها؛ إنه أثير السماوات الزرقاء. يقولKandinsky: «الأزرق العميق يجذب الإنسان نحو اللانهائي ويوقظ فيه رغبة في الصفاء وظمأ لما فوق الطبيعة، إنه لون السماء»35. لقد تخلص الشاعر من ثقالات المادة وأضحى روحا خالصة تحلق في الملكوت منجذبة لتلك النداءات العلوية بموسيقاها الغامضة ''بوق علوي مُترَع بالدندنات الغريبة''، هذه الأصوات العلوية الغريبة تجترح قلب السكون حيث ترتحل العوالم وترفرف الملائكة ''سكونات مجتازة للعوالم والملائكة''. هكذا يدخل بنا رامبو في هذه المرحلة الخامسة إلى عالم روحاني شفاف ومتناغم، عالم الرؤى والانخطافات، من هنا نفهم قول Rolland de Renéville«بأن رامبو قد بلغ الحكمة السامية»36.

هذه المراحل الخمس التي قطعها رامبو، تماشيا مع المسار الخيميائي، لكي يصل إلى هذه الحالة من الغبطة الروحية والامتلاء الصوفي، تقترب كثيرا في بعدها الروحي العميق، من المراتب التي يقطعها السالك للوصول إلى الحضرة الإلهية التي يرمز لها رامبو هنا بعبارة ''شعاع عينيها البنفسجي''، والبنفسجي لون روحي37، وهو كذلك لون الرؤى الصوفية38. يحدد القشيري مثلا، أربع مراتب من الأنوار تتدرّج كما يلي:

1- نور المراقبة.
2- نور الحضرة الإلهية.
3- نور الكشف.
4- نور المشاهدة.
تُتوّجها مرتبة خامسة تختص بأنوار التوحيد39.

أما ابن عربي فيستخدم مصطلح الحجب دلالة على المراتب، ويستغل الحجارة الكريمة والألوان في رمزيته، ويصنف ثلاثة أنواع من الحجب هي كما يلي:
1- حجاب أهل الحقيقة، وهو حجاب مكلل بالياقوت الأحمر (المرتبة الأولى).
2- حجاب أهل التفريق، وهو حجاب مكلل بالياقوت الأصفر (المرتبة الثانية).
3- حجاب أهل البرزخ، وهو حجاب مكلل بالياقوت الأكهب (المرتبة الثالثة)40.

في التجربة الخيميائية يأتي الأزرق في نهاية العملية كخاتمة للألوان السابقة ويبشّر بظهور الذهب الذي «يرمز إلى الدخول في رؤية الله»41. من جهة أخرى، إذا كان حرف O يمثل عين الله كما يورد بعض الدارسين42، فإن الرجوع إلى الأبجدية العربية، في رأينا، هو الذي يحسم هذا الموقف الرمزي فحرف O الفرنسي يماثل كما ذكرنا حرف O اليوناني (Oméga) الذي يماثل بدوره حرف "العين" العربي الذي يذكّرنا مباشرة بعين الرؤية اسما ورسما (عـ)، قد يبدو غريبا مثل هذا التأويل، لكن الغرابة سرعان ما تزول حين يتأكد المرء أن الأبجدية العربية هي الأم الشرعية لهذه اللغات منذ انتقالها إلى اليونان القديمة عن طريق العرب الفينيقيين، كما أثبتت الكشوفات الأثرية والبحوث الأخيرة43.

الهوامـــش والمراجـــع

1- David Guerdon, Rimbaud. La clef Alchimique, Éditions Robert Laffont, Paris 1980,P.208.

2- القبلانية: تفسير اليهود للتوراة صوفيا ورمزيا حسب التقاليد كما كان القدامى يفعلون.

3- Rimbaud, Une saison en enfer, Illuminations, Œuvres poétiques (Préface d'Ernest Delahaye), Club Géant, presses de la renaissance, Paris 1972,P.75.

4- David Guerdon, Rimbaud. La clef Alchimique,P.41.

5- Enid Starkie, Rimbaud, Traduit de l'anglais et présenté par Alain Borer, Flammarion Romania 1982, P.192.

6- David Guerdon, Rimbaud. La clef Alchimique,P.40.

7- القاشاني، اصطلاحات الصوفية، تحقيق محمد كمال إبراهيم جعفر، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1981، ص70.

8- المصدر نفسه، ص71.

9- المصدر نفسه، ص71.

10- David Guerdon, Rimbaud. La clef Alchimique,P.45.

11- المرجع نفسه، ص46.

12- المرجع نفسه، ص46.

13- Enid Starkie, Rimbaud, Traduit de l'anglais et présenté par Alain Borer,P.194 .

14-المرجع نفسه، ص194.

15- Rimbaud, Une saison en enfer, Illuminations, Œuvres poétiques,P.73.

16- Arthur Rimbaud. Poésies, Booking International, Paris 1993,P.83.

17-المصدر السابق، ص84.

18- David Guerdon, Rimbaud. La clef Alchimique,P.38.

19-المرجع نفسه، ص121.

20- Enid Starkie, Rimbaud, Traduit de l'anglais et présenté par Alain Borer,P.200 .

21- David Guerdon, Rimbaud. La clef Alchimique,P.121.

22- Rimbaud, Une saison en enfer, Illuminations, Œuvres poétiques,P.252-253.

23-نصوص صوفية غير منشورة، تحقيق بولس نويا اليسوعي، دار المشرق، بيروت 1973، ص212.

24- Rimbaud, Une saison en enfer, Illuminations, Œuvres poétiques,P.65.

25-سورة الحجر، الآية 26.

26- David Guerdon, Rimbaud. La clef Alchimique,P.139.

27-فراس السواح، مغامرة العقل الأولى، دراسة في الأسطورة، ط1، دار الكلمة للنشر، بيروت 1980، ص119.

28- المرجع نفسه، ص41.

29- المرجع نفسه، ص42.

30- المرجع نفسه، ص118-119.

31- المرجع نفسه، ص25.

32- المرجع نفسه، ص114.

33- المرجع نفسه، ص87.

34- المرجع نفسه، ص301.

35- David Guerdon, Rimbaud. La clef Alchimique,P.149.

36- Enid Starkie, Rimbaud, Traduit de l'anglais et présenté par Alain Borer,P.18.

37- شاكر عبد الحميد، التفضيل الجمالي، عالم المعرفة، عدد 267، الكويت، مارس 2001، ص 272، نقلا عن محمد خان، العلم الوطني دراسة للشكل واللون، أعمال ملتقى السيمياء والنص الأدبي، جامعة محمد خيضر، بسكرة 2002، ص17.

38- ساسين عساف، الصورة الشعرية ونماذجها في إبداع أبي نواس، نقلا عن عبد الحميد هيمة، الصورة الفنية في الخطاب الشعري الجزائري، ط1، منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين، الجزائر 2003، ص 92.

39- نذير العظمة، النور والحجاب بين التصوف والفولكلور، مجلة المعرفة، العدد 180، وزارة الثقافة، دمشق، شباط 1977، ص43.

40- المرجع نفسه، ص50.

41- Enid Starkie, Rimbaud, Traduit de l'anglais et présenté par Alain Borer,P.198.

42- David Guerdon, Rimbaud. La clef Alchimique,P.134.

43-رفيق المعلوف، العربية هي أم اللغات، مجلة العربي، العدد 533، وزارة الإعلام، الكويت، أبريل 2003، ص16-23.